بقلم : أ.د. حسن فتح الباب

صحبت النخلة العربى ابن الصحراء منذ نشأته الأولى ، فكان ثمرها قوام حياته فى كثير من الأحيان ، وكانت مجلى بصره وأنس روحه وجليس وحدته ، يتأملها فى غدواته وروحاته فتضفى عليه وقفتها السامقة مزيدا من الكبرياء ، ويتخذها رمزا للصمود ومغالبة شدائد الحياة وتعلم فضيلة الصبر الجميل والرضى والقناعة فى السراء والضراء ، والاعتماد على النفس ووفرة العطاء . إنها بنت البيئة العربية والمعادل النباتى لإنسانها ، إذ تمد جذورها إلى أعمق أعماق التربة لتستخرج قدرا من الماء تستعين به على مواصلة الحياة .

وقد بلغ من سمو قدرها وعظم شأنها وما تتميز به عن غيرها من النباتات أن عبدها العرب فى جاهليتهم ، ولما أشرقت شمس الدين الحق نبذ المسلمون هذه العبادة الباطلة ، ورأوا فى النخلة إحدى مخلوقات الواحد الأحد مثلها مثل غيرها من النعم التى أسبغها الله على الإنسان ، وظلت لها بين النباتات منزلة رفيعة بما خصها الله به من صفات ومن فوائد . فهى عروس الواحات فى الدنيا وزينة جنات النعيم فى الآخرة .

ويتبين من الاطلاع على تراثنا العربى الإسلامى أن للنخلة رصيدا روحيا لانجد مثيله فى أدب البلدان المجاورة للجزيرة العربية مثل بلاد الفرس أو غيرها من الأصقاع . ويرجع هذا التراث إلى أزمان موغلة فى القدم ، إذ نلتقى بالنخلة فى قصة هاجر حين تركها زوجها إبراهيم عليه السلام هى وولدها إسماعيل فى جوار البيت العتيق ، وترك لها جراب تمر وسقاء فيه ماء ، وأمرها أن تتخذ لها عريشا . وهكذا كان التمر وهو ثمر النخل أول طعام ذكر فى التراث . ثم ذكر فى القرآن الكريم فى سورة مريم : (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) .

ونرى بمخيلتنا نخيل يثرب وقد حف بها والأنصار يستقبلون نبى الله ورفيقه أبا بكر الصديق مهللين مرحبين مرددين :

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
جئت شرفت المدينة ... جئت بالأمر المطاع

وقد ذكر النخيل فى بعض الآيات القرآنية باعتباره من النباتات التى تدل على قدرة الله سبحانه فى خلق الحياة والأحياء من إنسان وحيوان ونبات تعمر بها الدنيا ، ووصفه من النعم التى خلقها للبشر وجعل لهم فيها منافع كثيرة ، أهمها ما يطلعه من ثمر طيب المذاق مكتمل العناصر الغذائية ، حتى كان العربى قديما يتخذ من تمرتين أو ثلاث طعاما يغنيه عن مأكل آخر طوال اليوم كله سواء فى السلم أو الحرب .

النخل فى الحياة الدنيا

ونظرا لعلو شأن النخيل بين النباتات ولمنظرها الجميل ومنافعه الكثيرة ، فقد تعددت المعانى والإشارات والإيحاءات والأحداث والعبر التى جاءت فى الآيات التى ذكر بها النخل ، وتكرر هذا الذكر له بصفته من نعم الحياة الدنيا التى أسبغها الله تعالى على عباده . وقد ورد باسمه فى بعض الآيات ، وباسمه وبعض أوصافه فى بعضها الآخر ، واقترن بالأعناب تارة وغيرها من أنواع الفاكهة كالرمان والزيتون تارة أخرى :

(والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام) سورة الرحمن ١٠ ، ١١ .

(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها من نخيل وأعناب . وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) سورة يس ٣٣ ـ ٣٥ .

(والنخل باسقات لها طلع نضيد) سورة ق ١٠ .

(وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضه على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) سورة الرعد ٤ .

(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها أعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) . سورة البقرة ٢٦٦ .

وفى تصوير مايتفرد به النخيل من جمال المنظر وحث المؤمنين على التأمل فى خلقه نزلت الآية الكريمة :

(وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه أنظروا الى ثمره وينعه ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) سورة الأنعام ٩٩ .

النخل فى مقام الاعتبار

وفى مقام الوعظ للاعتبار أيضا نزلت الآية الكريمة متضمنة ذكر النخل بوصفه من طيبات الرزق الذى يختبر الله به عباده :

(وأضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا) سورة الكهف ٣٢ .

فالله سبحانه يخاطب النبى عليه الصلاة والسلام قائلا : بين أيها الرسول فى شأن الكفار الأغنياء مع المؤمنين الفقراء مثلا وقع فيما سلف بين رجلين : كافر ومؤمن ، وللكافر حديقتان من أعناب ، واحطناهما بالنخيل زينة وفائدة ، وجعلنا بين الجنتين زرعا نضرا مثمرا .

وفى ذكر جذوع النخل ماورد فى القرآن من تهديد فرعون موسى للسحرة حين آمنوا بالله بعد أن شهدوا عيانا معجزة عصا موسى التى تلقف ما يأفكون ، فأوعدهم الطاغية بصلبهم على جذوع النخل :

(وألق ما فى يمينك تلقف ماصنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم أنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) ، سورة طه ٦٩ ــ ٧١ .

وفى ذكر جذع النخلة أيضا نزلت الآيات الكريمة فى سورة مريم :

(فحملته فانتبذت به مكانا قصيا . فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا) سورة مريم ٢٢ ــ ٢٦ .

وفى وجوب دفع الزكاة عن النخل وغيره من الزروع والثمرات على اختلاف صنوفها اذا تم حصادها يقول الله تعالى :

(وهو الذى أنشأ جنات معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره اذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين) سورة الانعام ١٤١ .

وقد ورد النخل فى القران للتشبيه به أو ببعض أجزائه ، وذلك فى حالة اثماره وفى حالة اقتلاعه من جذوره . ففى الحالة الأولى قوله تعالى :

(مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها) سورة لقمان .

وذلك لأن النخلة هى أشد الاشجار رسوخا وعمقا فى الأرض ، وأعلاها

قامة في الفضاء ومن أطيبها مأكلا .

وفي الحالة الثانية قوله تعالى :

(انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) سورة القمر ١٩ ، ٢٠ .

والمعنى أنه سبحانه سلط على قوم عاد ريحا باردة مدوية في يوم شؤم دائم ، تقلع الناس من أماكنهم ، وترمي بهم على الأرض صرعى ، كأنهم أصول نخل منقلع من مغارسه .

ويشبه الله تعالى القمر في حالة المحاق بعد الاكتمال بالعرجون القديم :

(والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) سورة يس ٣٩ .

والعرجون القديم هو سباطة النخلة اذا قدمت ويبست وأعوجت .
والمعنى أن الله سبحانه قد جعل بتدبير منه القمر منازل ، اذ يبدو أول الشهر ضئيلا ، ثم يزداد ليلة بعد ليلة ، الى أن يكتمل بدرا ، ثم يأخذ في النقصان كذلك ، حتى يعود في مرآه كأصل العنقود من الرطب اذا قدم فدق وانحنى وأصفر .

النخل في السنة النبوية

لا غرو أن يحظى النخل في السيرة النبوية بمكانة خاصة ترجع الى فوائده الجمة ، وأهمها كون ثمره وهو التمر غذاء كاملا للانسان يستطيع به أن يستغني عن غيره من صنوف الطعام . ومن ثم حث الرسول عليه الصلاة والسلام على التصدق ولو بجزء من ثمرة بقوله :

(اتقوا النار ولو بشق ثمرة) .

وفي الحث على العمل باعتباره وسيلة وغاية أساسية ينبغي على المسلم السعي اليها آناء الليل وأطراف النهار ، فلا يركن الى الكسل أو يستنيم الى الفراغ والدعة مهما جرت بين يديه الأموال ، لأن الرزق الحلال مشروط بالعمل الجاد ، قال صلى الله عليه وسلم ما معناه :

(لو علم أحدكم أن الساعة ستقوم وفي يده فسيلة فليزرعها فله بذلك أجر) .

ان الفسيلة هي نخلة صغيرة تقطع من الأم أو تقلع من الأرض فتغرس ومن المعلوم أن أوان اثمار النخلة يستغرق زمنا طويلا . ومن ثم لن يجني غارس الفسيلة تمرها اذا أدركته القيامة وهو يغرسها ، ولكنه سيثاب على صنيعه لان المرء يجزى على العمل الطيب ولو لم يخرج من نطاق النية الى الفعل . فالعبرة بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى .

تلك هي المعاني السامية التي يرمي اليها الحديث الشريف . فتعظيم العمل قيمة اسلامية ، لأنه مناط العبادة الحقة ، بل هو ذاته نوع من العبادة ، فما استخلف الخالق العظيم الانسان في الأرض الا ليعمرها . وما أكثر الآيات التي تحض على العمل الصالح في الدنيا . قال تعالى :

(وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

وما أكثر الأحاديث النبوية التي تحث المسلم بأهمية الكدح في سبيل العيش ، ففي العمل قوة والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وشعار الاسلام :

(لا يقعدن أحد عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة) .

وحين سأل رسول الله المسلمين عمن يتكفل منهم بالانفاق على رجل كان لا يترك المسجد ليل نهار قالوا : كلنا يا رسول الله . فقال : كلكم خير منه

فالصلاة واجبة لأنها أم الفرائض من تركها فقد ترك الدين ، ومن أقامها فقد أقام الدين . والعمل والعلم كلاهما . واجب يصل الى مقام الفريضة أيضا .

جذع النخلة يختار دار البقاء

قال جابر بن عبدالله : كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يخطبنا كل يوم جمعة على جذع نخلة ، أقمناه له داخل المسجد ، واستمر الأمر على ذلك زمنا . وذات يوم ، جاءت امرأة لها غلام يعمل بالتجارة ، وقالت : " يا رسول الله ، تأذن لابنى أن يصنع لك منبرا تخطب عليه ؟ " قال : " نعم ، فذهبت وأمرت ابنها أن يصنع منبرا من ثلاث درجات .

وعندما انتهى من صنعه ، وضعوه فى المسجد مكان جذع النخلة ، وعلا المنبر ، وبينما الناس ينتصتون الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المسجد ، سمعوا صوتا كصوت البعير الصغير الذى فقد أمه ، ينبعث من جذع النخلة . واشتد الصوت حتى سمعه كل من فى المسجد ، فنزل الرسول (صلى الله عليه وسلم) من على المنبر ، وذهب الى الجذع واحتضنه وأخذ يربت عليه حتى سكن وهدأ . ثم قال (صلى الله عليه وسلم) : " هل أغرسك فى الجنة لتأكل من ثمارك الصالحون ؟ أم أغرسك رطبا كما كنت فى الدنيا ؟ " فأختار جذع النخلة أن يكون من نخيل الجنة ، يأكل منه الصالحون .

ثم نظر الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى الصحابة وقال لهم : " انظروا الى الجذع ، لقد اختار دار البقاء على دار الفناء !! " .. وكان الحسن رضى الله عنه يقول : " الخشب قد حن الى رسول الله ، أفلا نكون نحن أولى بذلك من الخشب ؟ !! " .

تلك بعض المعانى والدلالات والصور التى وردت فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية فى شأن النخل والمكانة التى يختص بها فى الدنيا والآخرة ، وكلها تؤكد عظمة الخالق ووحدانيته ورحمته بعباده الصالحين . وما أصدق قول الشاعر :

وفى كل شئ له آية ... تدل على أنه الواحد

النخيل فى الشعر قبل الاسلام وبعده

لا يشغل وصف النخيل الا قليلا من المساحة فى خارطة الأدب العربى عامة والشعر خاصة ، فى حين تظفر كثير من النباتات الأخرى ولا سيما أنواع الريحان المختلفة بنصيب كبير من هذه الخارطة ، وذلك على الرغم من منافعه العديدة ودوره المؤثر فى حياة العرب منذ نشأتهم الأولى حتى اليوم ، وان كانت قد انحسرت أهميته بتحول بقاع صحراوية فى كثير من جهات المعمورة الى مناطق زراعية وأخرى صناعية أو سكنية بعد أن تغلب العلم والتكنولوجيا الحديثة على جدب الصحارى ، ونقل اليها الماء بمختلف الوسائل ، فأنقلبت من بعد صفرة ماحلة جرداء الى خضرة الخصب ونضارة الحياة .

ان النخلة وهى عروس الصحراء لم تكن عروسا للالهام الغنى الا لدى قلة قليلة من الشعراء فى جميع العصور ، فهى تثمر وهم مثل سائر الخلق يستمتعون بأكلها ، ولا يقدمون لها من الثناء والاعتراف بالجميل ما يتكافأ مع عطائها الموفور ، وكأنما قدرها أن تمنح ولا تأخذ ، ضاربة المثل الأعلى فى الايثار وهو قمة الفضائل ، فربما يتعلم الانسان منها الأريحية ونكران الذات .

وكأن النخلة بقوامها الممشوق وشموخها فى الأفق عمود من المطر الذى يتهيأ لرى الأرض اذا عطشت ، وكأنها اذ تتخذ شكل الرمح الذى يخترق الغلاف الهوائى حارس لاينام ليلا ولا نهارا أداء لرسالته فى رعاية الحقول والمروج التى حوله حتى لايعدو عليها مغير . وهى اذ تحمل عراجينها فى موسم الاثمار أم تحتضن صغارها فى حنان غامر وقد ألبستهم أزهى الثياب .

واذا قرأنا ديوان الشعر العربى قبل الاسلام وجدنا صورة النخلة تزهو بين صفحاته مباهية نباتات الصحراء الأخرى . فها هو امرؤ القيس يصور فى معلقته جذوع النخل بعد أن أتى عليها السيل العارم اذ يقول :

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ... ولا أطما الا مشيدا بجندل

والمعنى أن مدينة تيماء التى اشتهرت بنخلها الكثير وقصورها الحصينة ، قد أصابها سيل من المطر ، فلم يترك جذع نخلة لأنه أسقطها جميعا ، ولم يترك بهذه المدينة بناء قائما الا اذا كان مشيدا بالجنادل والصخور العظيمة .

ويشبه لبيد بن ربيعة فى معلقته فرسه بجذع النخلة وذلك فى قوله :

فعليت مرتقبا على مرهوبة ... حرج الى أعلامهن قتامها
حتى اذا ألقت يدا فى كافر ... وأجن عورات الثغور ظلامها
أسهلت وانتصبت كجذع منيفة ... جرداء يخضر دونها جرامها

يقول لقد علوت على الجبال التى ينعقد فى أعاليها الغبار المتصاعد أو الضباب الحامل للغبار أرقب حركات العدو حراسة لأصحابى طول النهار ، حتى اذا ألقت الشمس يدها فى الليل ، ودأت تغيب فيه ، وستر الظلام مواضع الخوف من نواحى العدو ، ولم يعد لمراقبتى فوق الجبل فائدة نزلت الى السهل ، ومرحت فرسى ونشطت وانتصبت كأنها جذع نخلة مرتفعة خالية من الكرب ملساء يضجر ويتعب دون الوصول الى رأسها من يجذ أعذاقها .

ويذكر الحارث بن حلزة اليشكرى فى معلقته السعف ويريد به النخل من باب اطلاق الجزء على الكل فيقول مفاخرا بقومه :

هل علمتم أيام ينتهب النا ... س غوارا لكل حى عواء
اذ ركبنا الجمال من سعف ... البحرين سيرا حتى نهانا الحساء

والمعنى ان الشاعر وقومه قد ركبوا الجمال من نخل منطقة البحرين حتى انتهوا الى الحساء .

وفى مرثية دريد بن الصمة لأخيه عبدالله الذى قتل فى معركة ثأرية يشبه فرسه بجذع النخلة لارتفاع رأسه حتى تعلو على قامة الرجل الطويل ، وكأنها نخلة زالت أصول كربها فصارت ملساء .

يطوت طويل القوم عقد عذاره ... منيف كجذع النخلة المتجرد

النخل فى شعر العصر العباسى

كثيرا ماورد النخيل معطوفا عليه الأعناب فى القرآن الكريم . وعلى هذا المنوال جرى بعض الشعراء العباسيين ومنهم أبونواس اذ يقول :

ليست الى النخل والأعناب نسبتها ... لكن الى العسل الماذى والماء

ومن فرائد الشعر فى وصف النخيل أبيات النواسى الآتية :

كرائم فى السماء ذهبن طولا ... ففات ثمارها أيدى الجناة
فرائد فى الرؤوس لها ضروع ... تدر على أكف الحالبات
صحائح لا تعر ولا تراها ... عجافا فى السنين الماحلات
مسارحها المذار قبطن خوخى ... الى شاطئ الأبلة فالفرات
تراث عن أوائل أولينا ... بنى الأحرار أهل المكرمات
تذب بها يد المعروف عنا ... وتصبر للحقوق اللازمات
فحين بدا لك السرطان يتلو ... كواكب كالنعاج الرائعات
بدا بين الذوائب فى ذراها ... نبات كالأكف الطالعات
فشققت الأكف فخلت فيها ... لآلى فى السلوك منظمات
ومازال الزمان بحافيتها ... وتقليب الرياح اللاقحات
فعاد زمردا واخضر حتى ... تخال به الكباش الناطحات
فلما لاح للسارى سهيل ... قبيل الصبح من وقت الغداة
بدا الياقوت وانتسبت اليه ... بحمرا أو بصفر فاقعات
فلما عاد آخرها خبيصا ... بعثت جناتها بمعفقات
بعثت جناتها فأستنزلوها ... برفق من رؤوس سامقات

انها لوحة تشكيلية تبهر المتلقى بما حفلت به من ألوان النخلة وأشكالها ، اذ شبه الشاعر شماريخ النخلة التى تحمل النمر بالفروع التى

تدر ألبانها بين أيدى الحالبين . وأشار الى أن هذه النخلة معطاء في السنوات الخصبة وفى السنوات العجاف ، وتنبت فى واسط والبصرة وبغداد وهى مدن عراقية . ثم أشار الى عراقتها قائلا أنها موغلة فى القدم فقد عرفها الأجداد وتركوها تراثا غنيا للاحفاد . وهى توفى دائما ما ألزمت به نفسها من حقوق واجبة الأداء لجناتها .

وينتقل النواسى من هذا الوصف وذلك السرد الى مشهد مسرحى يتمثل فى حركة الأيدى التى تقطف التمر الشبيه فى موقعه فى أعلى النخلة بهذه الأيدى الطالعة ، واللآلى المنظومة فى أسلاك . وقد اقتبس الشاعر هذا الوصف من الآية الكريمة : (والنخل باسقات لها طلع نضيد) . ثم تحدث عن تحول التمر من لون الى آخر بعد تلقيح الرياح النخلة ، اذ يبدأ أخضر كالزمرد ، ذلك الحجر الكريم الشديد الخضرة الشفاف الصافى الجوهر ، ثم تحول الى لون أحمر أو أصفر كالياقوت ، ولما ترك على أغصانه وزاد نضجه حتى أصبح رطبا بفعل حرارة الطقس اختلط بعضه ببعض فصار خبيصا ، وأنزله الجناة من ذوائب النخلة .

وهكذا اكتملت عناصر المشهد المسرحى ، فالشخوص تتجلى فى النخلة وأجزائها ومن يتسلقون جذعها لجنى تمرها ، والمكان هو البلدان العراقية ، والزمان متعدد وهو ميقات ظهور السرطان وهو من براج الشمس وظهور النجم سهيل . كما أن الرياح اللاقحات تلعب دورا فى هذا المشهد التمثيلى وذلك المهرجان اللونى .

ومثل النواسى يقرن ابن الرومى النخيل بالأعناب فى قصيدة يرثى بها عبد الله بن اسحق اذ يقول :

ما دافعت عنه أبواب محجبة ... كلا ولا حجر مغشية الخون
مملؤة ذهبا عينا تجيش بـه ... جنات نخل وأعناب وزيتون

ويشبه هذا الشاعر المصور تحول المرء من شباب الى مشيب ومن مشيب الى فناء بالقمر الذى يتجول الى عرجون نخلة :

نجرى مع الدهر والآجال تحجلنا ... والدهر يجرى خليعا غير معنون
يبقى ونفنى ونرجو أن نطاوله ... أشواط مضطلع بالجرى أفنون
تأتى على القمر السارى حوادثه ... حتى يرى ناحلا فى شخص عرجون

وقد اقتبس الشاعر هذه الصورة من قوله تعالى : (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) .

النخل فى شعر السرى الرفاء

وممن صوروا النخل فى قصائدهم الشاعر السرى الرفاء ، وذلك فى وصف قصر ومستان ود ولاب ـ ناعورة ـ لأبى تغلب الغضنفر ناصر الدولة :

فالنخل من باسق فيه وباسقة ... يضاحك الطلع فى قنوانه الرطبا
أضحت شماريخه فى النحر مطلعة ... اما ثريا واما معصما خضبا
تريك فى الظل عقيانا فان نظرت ... شمس النهار اليها خلتها لهبا

ومن قوله أيضا فى وصف نخل يطل على بركة فى احدى الدور ، ويتسم هذا الوصف بمثل الاسهاب الذى عرفناه عند النواسى :

منزل كالوسيم خلت عليه ... حاليات السحاب عقد النطاق
[illegible]
بين ساج كأنها ذائب التبر على مثل ذائب الاراق
وعذارى كأنهن من الحسن عذارى سفرن للعشاق
تتلاقى رؤسها لتدان ... وتنائى جسومها لافتراق
حليت من ثمارها فتراءت ... حاليات النحور والأعناق
تخرق المزن والتراب الى الما ... ء بتلك الفروع والأعراق

فلماء البحور اذ رسخت فيه ... وماء الغمام فيها تلاق
كيف قابلتها أرتك رياضا ... وسماء مخضرة الآفاق
ينثر الريح حليها فتراه ... نهب أيدى العفاة والطراق
بدع لو تحققت ببقاء ... كى أولى من الحلى بالحقاق
فكان الطلع النضيد جفون ... يتصدعن عن سيوف رقاق

وتتجلى براعة التصوير فى هذه الأبيات فى تشبيه النخل بعذارى كشفن عن وجوههن وتلاقت رؤسهن فى حين تناءت جسومهن ، وتشبيه ثمرات النخل التى تحملها شماريخها وأغداقها بحلى تلبسها هاتيك العذارى فى النحور والأعناق . وقد بلغ السرى الوفاء ذروة فى الابداع الشعرى الذى لا سابقة له حين تصور أن ثمة لقاء جرى بين ماء البركة الذى علاه النخل وبين ماء الغمام الذى تتخلله رؤس هذا النخيل ، رابطا بذلك بين القاع الأرضى والمائى وبين الغيم النورانى العلوى ، وجاعلا الأفق بلون رؤس النخيل الخضراء التى تسبح فى الأعالى والتى تكسب الروض الذى انبثقت فيه هذا اللون الجميل ، فكأنه بساط سندسى صنعه النخل ووصل به الأرض بالسماء .

وقد أضفى الشاعر على النص سمة مسرحية كما فعل النواسى بحديثه عن حركة الريح وهى تهتز ذوائب النخل المليئة بالتمر ، وأيدى الرجال الصاعدة لاجتنائه . واستعمل العبارة القرآنية فى وصف هذا التمر (الطلع النضيد) مشبها له بالجفون والسعف بالسيوف الرقيقة .

فى وصف آخر لقصر وستان بالموصل لأبى الحسن يارخ بن عبدالله يقول السرى الوفاء فى تصوير النخل وتشبيهه بالغيد الحسان :

وحالية الأجياد من ثمراتها ... مغلكة الأجسام خضر الذوائب
خرقن الثرى عن مائة الغمر فارتوت ... أسافلها من زاخر غير ناضب
تقل شماريخ الثمار كأنها ... اذا طلعت حمرا أكف الكواعب
لها كالئ يذكو اللحاظ وخلالها ... حذارا عليها من سخاط النوائب
يرد اليها حية الماء ما أنكفت ... عن القصد أو صوت صدود المجانب

فقد لبست خضر الغلائل وانثنت ... لها مجنحات بخضر الشوارب
قطوف تساوى شربها وتباينت ... تباين مسود العذار وشائب

النخل فى شعر المتنبى

ويذكر المتنبى النخيل فى أبيات ارتجلها فى مجلس سيف الدولة الحمدانى وبين يديه نارنج وطلع وهو يمتحن الفرسان ، وذلك ردا على قول ابن حبيش شيخ المصيصة : لاتتوهم هذا للشرب ، فقال أبوالطيب :

شديد البعد من شرب الشمول ... ترنج الهند أو طلع النخيل

وتتجلى سعة خيال شاعر العربية الأكبر فى تشخيصه السدر والنخيل فى هذه الأبيات التى مدح بها سيف الدولة :

كيف لا يأمن العراق ومصر ... وسرايا كدونها والخيول
لو تحرفت عن طريق الأعادى ... ربط السدر خيلهم والنخيل

يقول : لو ملت عن طريق الروم لساروا وأوغلوا فى ديار العرب دون أن يقف فى طريقهم أحد حتى يربطون خيولهم بالسدر والنخيل التى بالعراق ومصر . يعنى : لولا ذودك عن هذه الممالك لملكتها الأعداء .

ويشبه المتنبى الفرس العالية الوثابة بالسحوق وهى النخلة الطويلة التى لاينالها أحد الا بالتعب ، وذلك فى قوله مادحا أبا الفوارس دلير بن لشكروز وقد جاء الى الكوفة مطاردا خارجيا من بنى كلاب :

وقاد لها (دلير) كل طمرة ... تنيف بخديها سحوق من النخل

ومن أشعار العرب فى النخلة السحوق :

يارب أرسل خارف المساكين عجاجة ساطعة العثانين
تنفض ما فى السحق المجانين

يعنى بخارف المساكين الريح الشديدة التى تنفض لهم المثمر من رؤوس النخل ، وعثنون الريح هيدبها اذا أقبلت تجر الغبار جرا .

وتطلق كلمة السحوق على جذع النخلة أيضا . يقول الشاعر :

كأن الجسم للرائين طود وهاديها كأن جذع سحوق

وللشاعر أبى العلاء المعرى وصف بديع للنخل اذ يراه أشرف الشجر كما أن نهر دجلة هو خير الأنهار :

وردنا ماء دجلة خير ماء وزرنا أشرف الشجر النخيلا

ويذكر سعف النخل الشاعر مسلم بن الوليد المشهور بلقب صريع الغوانى وذلك فى وصف قهوة مزة اذ يقول :

وبيعة شمس لم تهجن عروقها بنار ولم يقطع لها سعف النخل

صورة النخيل فى عصر الفاطميين والمماليك :

وللشاعر عمارة اليمنى الذى عاش فى عصر الفاطميين وأقام بمصر قصيدة يصف فيها دارا بناها فارس الاسلام الملك الصالح بن رزيك وأنشأ فيها حدائق ازدهرت بالنخل والرمان اذ يقول :

فيها حدائق لم تجد ها ديمة كلا ولا نبتت على وجه الثرى
لم يبد فيها الروض الا مزهرا والنخل والرمان الا مثمرا